قصة قصيرة

العرس

مصطفى زيات

- ١ -

تبعثر المدعوون والمدعوات يتبخترون في رحاب قاعة الفندق الفخمة ذات القبة العالية المدعمة بأعمدة من الرخام الأبيض كالحليب: الرجال ببدلاتهم الأنيقة، والنساء بأثوابهن الحريرية الهفهافة الطويلة المختلفة في أشكالها وألوانها، وعقودهن وأساورهن وأقراطهن الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة، وشعورهن المصفّفة بإتقان بالغ في تسريحات أنيقة مبتكرة. وفي الجانب الأيمن للقاعة، وبين عمودين، اصطفّ أفراد الفرقة الموسيقية ببزّاتهم الرسمية السوداء وقمصانهم البيضاء وآلاتهم الكهربائية، وقد طرزت صدور ستراتهم، وكذلك رؤوس أكمامهم، بخمسة نجوم ثمانيّة صفراء، يقودهم رجل قصير أشيب يعتلي منصة خشبية صغيرة وبيده عصا قصيرة يشير بها إلى عازفيه الذين يملأون القاعة ألحاناً هادئة رقيقة تجعل جوَّها ـ إلى جانب الأنوار الملونة المتحركة ـ ساحراً أخاذاً. أما المطرب فيمتاز عن الجميع بصفة رئيسة هي اللمعان، فسترته الفضيّة لماعة تضيع معها ملامحها وأجزاؤها، كأنها صنعت من رقائق الفضة، وهي تعكس الضوء بصورة يشعر معها من يراها على بعد بأنها هي نفسها مصدر الضوء، وسرواله الأسود لمّاع أيضاً، وشعره المصفّف بعناية فائقة وحذاؤه لمّاعان أيضاً، وحتى أسنانه فهي تظهر ـ من خلال ابتسامته العريضة ـ كبؤر ضوئية صغيرة شديدة الإشعاع. وعلى أنغام الموسيقى الهادئة، وكالنجم بين الأجرام، كان المطرب يتجول بين المدعوّين والمدعوّات، يحيّي هذا ويردّ تحية ذاك، يلاطف هذه وتداعبه تلك، شارباً من كؤوس بعضهم، واعداً الجميع بتلبية رغباتهم، راجياً منهم الصبر قليلاً، يلاحقه في كل ذلك مصوّر نشيط لا يغفل عن شاردة أو واردة، يسجّل هذه اللحظات في لقطات تذكارية خالدة.

صفّق جميع المدعوّين والمدعوّات حين توقّفت الفرقة الموسيقية عن العزف، ثم التفوّا حول المطرب وقد اشتدّ تصفيقهم وهتافهم.

توجّه المطرب مبدياً انصياعه، باسماً، نحو قائد الفرقة الموسيقية وهمس في أذنه، بعد أن قدم له كأسه، ثم التفت نحو المدعوّين يرجوهم الهدوء والابتعاد قليلاً.

تراجع المدعوّون قليلاً إلى الوراء محدثين ساحة صغيرة، تقدّم المطرب ليقف في وسطها منتصباً رافعاً رأسه موجهاً بصره إلى قبة القاعة محركاً قدمه اليمنى وأصابع يده اليمنى على إيقاع الموسيقى التي بدأت الفرقة الموسيقية تعزفها خلفه، والمصور النشيط يلتقط عشرات الصور ومن مختلف الزوايا وعلى مختلف الأبعاد، ثم توقّف بإشارة من المطرب وانضمّ إلى صفوف

المدعوين حيث قدّمت له إحدى المدعوّات كأسها فتناولها شاكراً باسماً.

بدأ المطرب ـ على إيقاع بطيء ـ أغنيته مادحاً العريس مفاخراً بأمجاد أهله، من الأحياء والأموات والذين لم يولدوا بعد، ثم أنهى مقدمة أغنيته بتحية الحاضرين جميعاً، ونزولاً عند الحاح المدعوّين الظاهر في تصفيقهم الحادّ وهتافاتهم وصفيرهم وإشاراتهم المتكررة أعاد المطرب مقدمة أغنيته مرة ثانية، ومرة ثانية ساد الهرج والمرج.

راح المطرب (يترقوص) على أنغام الموسيقى، التي تسارع إيقاعها وأصبح راقصاً، وتصفيق المدعوّين المنتظم، وكذلك فعل بعض المدعوّين والمدعوّات وهم في أماكنهم، ثم وافقت إحدى المدعوات ـ بعد تدلّل ـ على طلب المطرب وراحت ـ بعد أن حزمت ردفيها بشالها الأحمر ـ ترافق برقصها المضطرب أغنية المطرب العاطفية التي ينتهي مقطعها الأول بصرخة قوية (هـزّي. هزّي) يطلقها المطرب ويردّدها المدعوون فتهتزّ المدعوة الراقصة هزاً عصبياً عنيفاً.

ومع بداية المقطع الثاني انضم إلى الراقصة بعض المدعوات والمدعوين وراحوا يرقصون بأشكال مختلفة، كأن كلاً منهم يرقص لنفسه، وينتهي المقطع الثاني بـ (هـزّي. هزّي) أيضاً فيهتزّ الراقصون جميعاً، كمن مسّهم تيار كهربائي شديد.

ومع نهاية المقطع الأخير كان جميع المدعوين، بمن فيهم العريس، يرقصون، ثم هتفوا جميعاً وبصوت واحد (هـزّي. هزّي) وراحوا يترنحون متعبين ويضحكون بتكاسل، وكان المصور أشدهم تعباً، بينما انحنى المطرب أكثر من مرة يحيي المدعوين، ثم أخرج منديله وراح يمسح به العرق الغزير عن جبهته ووجهه وعنقه، ثم تناول كأساً من أحد المدعوين، ثم عادت الموسيقى ـ كما كانت ـ هادئة بطيئة.

هرول العريس باتجاه مدخل القاعة الرئيسي لاستقبال عروسه التي كانت تمشي بثياب الزفاف البيضاء بين والدها ووالدتها، وعزفت الفرقة الموسيقية المعزوفة القصيرة الخاصة تحية للعروس وأهلها، ثم قُدّمت لأهل العروس ومرافقيها كؤوس الشراب، كما قدم العريس كأسه لعروسه فأخذتها باسمة، وراحا يتجولان بين المدعوين، العريس يقدم عروسه لأصدقائه، والعروس تقدم عريسها لصديقاتها، ويتبادلان مع الجميع قبلات التهنئة.

ـ ٢ ـ

لم يطل انشغال المدعوّين وتساؤلهم عن سبب تأخر الراقصة الأولى، فها هي ذي تتبختر عند مدخل القاعة الرئيسي ترافقها وصيفتها التي تحمل لها علبة زينتها وحارسها الذي يحمل لها حقيبة ثيابها وقارع الطبلة ـ فهي لا تستطيع الرقص على إيقاع غيره ـ.

كان المطرب والعريس على رأس المستقبلين الذين أبدوا قلقهم لتأخّرها وتمنّوا ألاّ يكون في الأمر ما يسوء، وهم ـ على كل حال ـ سعداء لوصولها بالسلامة.

اكتفت الراقصة في إجابتها على تساؤلاتهم بالإشارة إلى ثيابها موحية لهم بأن الشغل في الأفراح لم يترك لها فرصة لتبديل ثيابها فجاءت بثياب الرقص وقد التفّت بمعطف من الفرو خوفاً من البرد.

أجلس المطرب الراقصة على أقرب كرسيّ ـ بعد أن طلب من أحد المدعوّين التخلّي عنه ـ ولملم أطراف معطفها مغطياً صدرها وفخذيها وقدّم لها كأسه وطلب إليها أن تستريح قليلاً، بينما انضمّ قارع الطبلة إلى الفرقة الموسيقية، أما الوصيفة والحارس الخاص فقد انضمّا ـ بعد أن تركا حقيبتيهما قريباً من الفرقة الموسيقية ـ إلى المدعوّين يشاركانهم الشراب والحديث.

قعد العروسان على كرسيين مزخرفين متجاورين مرتفعين في الجانب الأيسر للقاعة، وخلفهما ـ وعلى حاملين كبيرين ـ باقتان كبيرتان من الورد والأزهار، وعلى جانبيهما اصطفّ الأهل والأقارب والأصدقاء على شكل حلقة انتصب المطرب في وسطها.

تقدّمت الراقصة، وهي ما تزال ملتفّة بمعطفها، وهنّأت العروسين وباركت لهما وطبعت قبلتين على وجنتي العروس، ثم استدارت واقتربت من المطرب باسمة هامسة.

بدأت الموسيقى بطيئة غير واضحة يرافقها المطرب بنحيحه،

والراقصة ـ في مكانها ـ مطأطئة تحرك قدميها بتثاقل، ومع تسارع الموسيقى وانتظام ألحانها خلعت الراقصة معطفها ورمته لوصيفتها، ثم رفعت رأسها وأمالته قليلاً إلى الوراء وهزّته هزّات خفيفة جعلت شعرها الأسود الطويل يرتدّ إلى الخلف ويرتمي معظمه على ظهرها العاري، وشبكت ـ بأصابعها ـ ما تبقّى منه خلف أذنيها، وراحت تتمايل وهي تتحسّس براحتيها أجزاء جسمها البضّ وتصلح أوضاع حزامها وحمالة نهديها وشالها الأحمر الكبير الشفّاف، ثم راحت ترقص على أنغام أغنية الزفاف معبرة عن معانيها بحركات جسدها.

وصف المطرب نهدي العروس بأنهما رمّانتان حلوتان يحركهما النسيم العليل، فراحت الراقصة ـ بعد أن رمت شالها للمطرب ـ تهزّ نهديها هزّات سريعة لليمين واليسار، والأعلى والأسفل وبشكل دائري، ثم تمسحهما بكفيها وتضغطهما إلى بعضهما وترفعهما محاولة تقليبهما وتمريغ وجهها بهما. وشبَّه المطرب ردفي العروس وفخذيها بوسائد من ريش النعام، فرافقته الراقصة تهزّ ـ وهي تدور حول نفسها ـ وركيها وتلطم بلطف أليتيها وتمسحهما بكفيها بشكل دائري، ثم تغرز فيهما بعنف أظافرها. وحين قال المطرب ـ في المقطع الأخير ـ إن قدَّ العروس كغصن البان المتمايل راحت الراقصة تحرك أسفل بطنها للأمام والخلف بحركة متموّجة متسارعة، وحين بلغت ذروتها أسقطت الراقصة جسدها على الأرض مستلقية على ظهرها وساقاها تحت فخذيها المنفرجتين أقصى انفراج وذراعاها على الأرض تحت رأسها وهي تهز بطنها هزاً عصبياً عنيفاً، ثم هدأت، بينما ضجّ المدعوون بالتصفيق والهتاف والصفير.

- ٣ -

رفض جميع المدعوّين ـ بعد ذهاب العروسين ـ اعتذار الراقصة وتعلّلها بالإعياء والتعب، واستنكروا رجاءها وتوسّلها إليهم بالسماح لها بالانصراف، وألحَّ بعضهم بلطف وتزلف وتذلّل راجين أن لا تفسد عليهم فرحتهم، واثقين من كرمها ورحابة صدرها وتضحيتها و. . . ، وألحَّ بعضهم بعنف وغضب وراحوا يذكرونها بواجباتها في عملها وحقوقهم عليها و. . . حتى أن أحدهم ـ جاداً أو متصنعاً ـ هددها بمنعها بالقوة من الانصراف، وظلّت الراقصة تتمنع ـ بتذلّل يشوبه القلق، ثم أعلنت انصياعها لرغبتهم بهز رأسها وإحنائه مرات عديدة، وهي تضحك بصوت عالٍ وتلطم وجنتيها بلطف لطمات خفيفة سريعة، كمن غُلب على أمره في عمل يسعده.

فرح الجميع وصفّقوا وهتفوا ولوحوا بأيديهم، وشبك بعضهم أصابع يديه ورفعهما علامة الفوز والانتصار.

صاحت الراقصة منادية وصيفتها:

- أحضري البخور. . .

ثم هتفت باتجاه الفرقة الموسيقية:

- . . . وانقروا الدفوف والمزاهر. . .

ثم خاطبت المدعوين بحزم وتصميم وبأعلى صوتها:

- . . . ولسوف نرقص حتى الصباح. . .

ثم صرخت بلهفة ونشوة:

- . . . هيا. . هيا. . لنخرج الشياطين. . كلَّ الشياطين من أجسادنا.

أقعت الراقصة وأحنت ظهرها وألصقت ساعديها المتصالبين بفخذيها، حيث صارت كفّها اليمنى فوق ركبتها اليسرى، وكفها اليسرى فوق ركبتها اليمنى، ورأسها فوق ركبتيها المتلاحمتين، وسكنت على هذا الحال.

ابتعد المدعوّون والمدعوّات قليلاً عن الراقصة، ونزع المطرب عن رقبته شال الراقصة الكبير الأحمر الشفاف وغطاها ـ بكاملها ـ به فبدت تحته ـ وهي ما تزال ساكنة دون حراك ـ ككومة من اللحم الأبيض البضّ.

واقتربت الوصيفة ـ بعد قليل ـ وهي تحمل مبخرة حديثة وتنثر مسحوق البخور فوق أقراص الفحم المتوهّج فينتشر الدخان الكثيف الأبيض كالحليب، ثم دارت حول الراقصة وهي تتمايل وتحني رأسها ـ بالتناوب ـ نحو كتفيها ثلاث دورات، ثم وضعت المبخرة ـ بعد أن أدارتها فوق رأس الراقصة ثلاث مرات أيضاً ـ أمام الراقصة وتراجعت ـ دون أن تستدير ـ منحنية وببطء شديد حتى خرجت من دائرة الضوء الوحيدة الباقية في القاعة بعد أن أطفئت جميع المصابيح، والراقصة في مركز الدائرة ما تزال ساكنة.

راحت الراقصة تتحرك ـ تحت شالها ـ فرفعت رأسها قليلاً قليلاً وببطء شديد، وكأنها تستيقظ من إغماءة طويلة، ثم راحت

ترفع ساعديها المتصالبين وهي تحرك يديها وترفعهما باتجاه وجهها المغطى ـ تماماً ـ بشعرها الأسود الطويل، كما راح بدنها ينتصب رويداً رويداً، بينما ركبتاها المتلاحمتان تقتربان من الأرض وقريباً من المبخرة، ويداها ترتفعان فوق رأسها وتتباعدان وتمتدّان ـ وكذلك بصرها من خلال خصلات شعرها ـ نحو سقف القبة وكفّاها تنبسطان وتنقبضان بحركة ضارعة متوسلة، ثم راحت تميل بكتفيها ورأسها ويديها وشعرها الذي يخفي وجهها بحركة دائرية بطيئة كعقرب الساعة ترافقها ضربات الدفوف والمزاهر البطيئة الحادة، كما يرافقها ـ وبسبب حركة الشال ـ تمايل عمود الدخان وتماوجه أمامها، ثم رفعت فخذيها ببطء شديد عن ساقيها، بينما ظل ساقاها المتلاصقتان ملتصقتين بالأرض.

تسارعت ضربات الدفوف والمزاهر قليلاً، فراحت الراقصة تنهض مستندة إلى قدمها اليمنى وهي ما تزال تتمايل بجسمها ورأسها ويديها بحركة دائرية بطيئة، ثم راحت ـ بعد انتصابها ـ تدور حول المبخرة وحول نفسها معاً وهي تتمايل ـ تحت شالها ـ ويداها ترتفعان إلى أقصى مدى باتجاه القبّة وتهبطان إلى كتفيها، وكفّاها ـ ما تزالان ـ تنبسطان وتنقبضان ضراعة وتوسلاً.

دوت في القاعة ـ بعد أن أتمّت الراقصة ثلاث دورات حول المبخرة ـ صيحة عالية طويلة (يهووو.) وتسارعت بعدها ضربات الدفوف وحركات الراقصة وأصبحت عصبية تشنّجية.

دخل بعض المدعوّين والمدعوّات دائرة الضوء وشكلوا حول الراقصة حلقة صغيرة وراحوا يقلدونها ـ بارتباك ـ في رقصها وعصبيتّها وتشنّجها وهم يدورون حولها وحول انفسهم معاً.

كبرت الحلقة ـ وكذلك دائرة الضوء ـ بعد انضمام المزيد من المدعوّين، والراقصة في مركزها تتابع دورانها حول نفسها وحول المبخرة وقد التفّت شالها الأحمر الشفّاف بإحكام حول جسدها الذي بانت معالمه واضحة بارزة تماماً.

تسارعت ضربات الدفوف وحركات الراقصين بعد الصيحة الثانية (يهووو..) وراحت الراقصة تمزق ـ بأسنانها وأظافرها ـ شالها الأحمر الذي أصبح يعوق حركات أعضائها السريعة وتقذف بقطعة إلى الأعلى فتختلط بالدخان المتناثر باضطراب فوق مركز القاعة فتكسبه لوناً أحمر مثيراً. وبعد الصيحة الثالثة (يهوو) راحت الراقصة تمزق ـ بأظافرها وأسنانها ـ ثوب رقصها بادئة بأذياله الطويلة البيضاء الشفافة، ثم نزعت حمالة ثدييها ـ بعد أن فشلت في تمزيقها ـ وقذفت بها إلى قبّة سماء القاعة وقلّدها في ذلك بعض المدعوّين وراحوا يمزّقون ثيابهم أو ينزعونها ويلوحون بها ثم يقذفون بها إلى سماء قبة القاعة أيضاً، ولما انتهوا من ثيابهم بدأوا بثياب الآخرين تمزيقاً وتقطيعاً.

راحت الراقصة ـ بعد نزع القطعة الأخيرة من ثوب رقصها تدور وتهتزّ بسرعة كبيرة تضيع معها ملامح جسدها، ثم راحت تلطم وجهها المغطى بشعرها المبلّل بعرقها وتلكم رأسها وتمزّق جلدها ـ بأظافرها وأسنانها ـ في أماكن مختلفة من جسدها، وجهها وصدرها وساعديها وفخذيها و... وهي تصدر صيحات قصيرة حادة غريبة مفزعة مثيرة.

نسي المدعوون أنفسهم وراحوا يلطمون ويلكمون ويصفعون أنفسهم وغيرهم ويمزّقون ـ بأظافرهم وأسنانهم ـ جلودهم وجلود غيرهم، وعلت صيحاتهم فلم تعد تُسمع ضربات الدفوف والمزاهر السريعة العالية.

صاحت الراقصة أعلى صيحاتها وأطولها ثم سقطت على وجهها بجانب المبخرة جثة هامدة، وخصلات شعرها الأسود الطويل تلتصق بجانب وجهها وعنقها وكتفيها وظهرها.

لعلعت ولولة الوصيفة فجمد الجميع، وخرست الدفوف والمزاهر، أما دخان البخور الأبيض الذي كان يتماوج ويتعرج وينتشر فوق الحلبة باضطراب بسبب حركة الراقصين فقد انتظم واستقام وصار واحداً من أعمدة قبة القاعة.

انقلبت ـ بعد لحظات ـ ولولة الوصيفة المتكوّمة عند رأس الراقصة عويلاً ونواحاً، وتحرّك الجميع، ما عدا من كان مغشياً عليه من المدعوين المبعثرين حول المبخرة وجثة الراقصة العارية البيضاء كالحليب.

تساند المدعوون واتّكأ بعضهم على بعض، مطأطئي الرؤوس، مسبلي الأيدي، وجرُّوا أنفسهم، وقد حملوا بعضاً من أشيائهم وأشلاء ثيابهم، واتجهوا نحو المدخل الرئيسي للقاعة، وكان آخرهم قارع الطبلة.